إنّا لله..

دخلت ساحة العزاء في مسجد عمر مكرم متأخراً كعادتي في تلك المناسبات وقت صلاة العشاء. خلت الساحة من المعزين ومن مستقبليهم من أقارب المتوفَى لأداء الصلاة. جلستُ في أحد أركان الساحة صامتاً لعدة دقائق حتى امتلأت الساحة مرة أخرى، وبدأ المقرئ في التلاوة.. نظرت حولي فوجدت بعض الوجوه المألوفة التي لم يحاول أصحابها السلام عليّ ولو بالإشارة أو حتى بالإيماء..

نظرت إلى شمالي فوجدت ثلاثة أشخاص يتسامرون ويضحكون بخفوت، أحسست ببعض الضيق تجاههم لتكلمهم وقت التلاوة، وهممت أن ألفت نظرهم لذلك وكدت أن أتفوه بشيء، لكن تسلل إلى مسامعي حديثهم الهامس فسمعت أحدهم يقول مخاطباً زميليه:

ـ يا جماعة اذكروا محاسن موتاكم، لم يكن المرحوم سيئاً إلى هذا الحد..

رد عليه أحدهما متهكماً:

ـ ولكن ها نحن نذكر محاسنه يا أمجد بيه. . ولكن يبدو أن تلك المحاسن ليست بالحسن الكافي. .

رد عليه الأول وقد بدا وكأن الحديث بدأ يستهويه: لقد كان المرحوم قليل المحاسن فيما يبدو. .

نظرتُ إلى الرجل الثالث الذي ظل ساكتاً وهو يبتسم بهدوء فوجدته أحد الأصدقاء المقربين لي. حاولت أن أشير له ولكن يبدو أنه لم يرني.

امتلأت الساحة عن آخرها فأتم المقرئ قراءته بالتصديق حتى يقوم المعزين تاركين أماكنهم لغيرهم. .

نظرت إلى المقرئ فوجدته بدأ في حوار ضاحك بينه وبين زميله المقرئ الآخر، ومد يده وأشعل سيجارة وبدأ في تناول الشاي!

حوقلت بصوت مرتفع، فغمرني ضيق شديد من لامبالاة المعزين والمقربين وسوء نياتهم. كدتُ أن أقوم من مجلسي إلا أنني شعرت بيدٍ تربِّت على كتفي برفق. .

التفت بسرعة خلفي وأنا أفكر أنه أخيراً سلّم عليَّ أحدهم، قلت في دهشة: حسين؟؟ كيف حالك؟ متى عدت من الإسكندرية؟؟

نظر إليّ حسين نظرة لم أفهم معناها ثم أجابني فجأة وكأنه تدارك السؤال:

ـ عدت مساء أمس.

قلت له: أنا لا أحب السفر ليلاً على الإطلاق.. إنه في منتهى الخطورة.. أومأ برأسه موافقاً ثم قال مقتضباً: إن رحمة الله واسعة..

عدتُ أسأله وقد تذكرتُ شيئاً: هل سمعت عن تلك الحادثة المريعة التي وقعت على الطريق الصحراوي بالأمس؟ لقد قرأت عناوين الموضوع في صحف اليوم.لم أقرأ التفاصيل ولكني قرأت أن أربعة أشخاص قد قتلوا.

عاد ليومئ برأسه وهو يقول: أرجو أن يتغمدهم الله برحمته التي وسعت كل شيء.. ثم استطرد سريعاً وكأنه تذكر شيئاً وهو يسألني: هل صليت العشاء بعد؟

قلت له: لا ، فقد جئت متأخراً كعادتي و...

قال وهو يأخذ بيدي إلى مخرج الساحة إلى المصلى: هيا بنا إذاً...

وجدتها فرصة جيدة لتفادي الزحام عند خروج المعزين للسلام على أقارب المتوفَى.. فخرجت معه وصلينا العشاء مجتمعين ثم انطلقنا إلى خارج المسجد وإلى خارج الساحة..

نظرت ملياً إلى جموع المعزين وهم يخرجون من ساحة العزاء ويسلمون على أقارب المرحوم، وما إن وقعت عيني على أحد مستقبلي العزاء حتى اتسعت عيني بشدة وقلت وأنا لا أصدق: هذا غير معقول.. نظرت إلى صديقي بذهول وقلت له وأنا لا أتمالك نفسي:

إذاً.. أنت... الحادثة.. ولكن هذا غير معقول!.. نظرت إلى يدي ثم إلى من حولي بدهشة حتى وقعت عيني على اسم المتوفَى المكتوب في مدخل ساحة العزاء... تسمّرت للحظة بدت كالدهر.. مشيت خلف صديقي الذي أمسك يدي برفق، وأدرت ظهري لتلك اللافتة المكتوب عليها اسم المرحوم والذي كنت يوماً ما أحمله على بطاقتي الشخصية.. جذبني صديقي برفق وهو يقول: هيا ، إنا إليه راجعون...